



في شباط عام 2011 وقبل أن تبدأ الثورة السورية كتبت مجلة فوغ الأمريكية مقالة مطولة عن أسماء الآخرين عقيلة بشار الأسد عنوانها "أسماء الأسد: وردة في الصحراء". السيدة الأولى لسوريا سيدة جميلة، طويلة، رشيقه تتناقل وسائل الإعلام العالمية صور أزيائها المنتقة ببراعة وذوق والتي صممتها أشهر دور الأزياء في العالم. إنها تتكلم الإنكليزية بطلاقة باعتبار أنها نشأت وتترعرعت في بريطانيا، وتعرف كيف تحاور الصحفيين، ولها العديد من النشاطات الخيرية. طبعاً عندما بدا واضحًا خلال الأسابيع الأولى للثورة أن نظام بشار الأسد ليس إلا نسخة شابة عن نظام أبيه خجلت المجلة من نشر هذه الصورة المشرقة لعقيلة ديمقراطية دموي فألغت ظهور المقالة من موقعها على الإنترنت.

هذه الحادثة ليست حالة منفردة لمجلة أزياء تُعنى بأخبار الأغنياء والمشاهير وجدت ضالتها في فتاة غنية متربة تعيش حياة أميرة شرقية لكن بصورة أوروبية. هذه المقالة في الحقيقة كانت جزءاً من حملة علاقات عامة ضخمة استمرت عدة سنوات لخلق صورة باهرة لبشار الأسد ونظامه.

في حالة مقالة فوغ كانت شركة براون لويد جميس الأمريكية للعلاقات العامة هي صاحبة الفكرة. وذكرت بعض الصحف أن أستاذ تاريخ الشرق الأوسط ديفيد ليش المختص بسوريا والذي قابل الأسد الابن عدة مرات نصح الأخير باستخدام شركة علاقات عامة لتحسين صورة النظام في العالم. وليس من المستبعد أن السوق الأوروبية التي حاولت لسنوات جذب سوريا إلى الشراكة الاقتصادية معها وإلى مبادرة المتوسط قد لعبت دوراً هاماً في تلميع صورة الأسد في العالم تمهدًا لمشاركته اقتصادياً.

بداية لا بدّ من التنويه إلى أن السوريين كانوا مستعدين نفسياً لقبول أية صورة إيجابية لرئيس سوريا الجديد بعد عقود من حكم أبيه **الخانق**. لقد استطعن الكثير من السوريين تماهي الدولة مع رئيسها. الدولة في نظر كثير من السوريين هي النظام نفسه الذي يقوده شخص واحد. ولا يختلف نظام الحكم حسب هذه الصورة عن أي نظام ملكي استبدادي. لكن ثلاثين سنة من بطش الأدب الديكتاتوري الحاكم الواحد والمطلق أدت إلى اختزال الدولة في أذهان السوريين وفي واقعهم إلى شخص

الرئيس وحده. ولذلك لم يتحتاج النظام من أجل تلميع صورته داخلية أكثر من تلميع صورة الرئيس وحده. وصل كثير من السوريين إلى قناعة مفادها أن عائلة الأسد وحكمها المخابراتي هي قدرهم الذي لا مفر منه، وأن التأقلم معه أسهل بكثير من تغييره. وهذا المنطق هو الأساس في قبول السوريين بصورة الأسد الجديدة على أنها صورة سوريا الجديدة. لا بل إن العديد منهم ظل متمسكاً بإنكار حقيقة الاختلاف بين الواقع والصورة حتى بعد أشهر من قمع النظام لثورة الشعب.

فما هي معالم هذه الصورة البراقة التي نجح النظام في رسمها لرئيسه وسوقها على أنها صورة سوريا الجديدة، والتي أعطت بشار الأسد زخماً من الشرعية والولاء الشعبي حتى بعد أشهر من سفك الدماء؟

الشاب المتحضر:

إنه لمن المؤسف أن عقوداً من القومية العربية لم تعطِ السوريين أياً من الثقة بثقافتهم واعتبارها أنها ثقافة "متحضرة" تضاهي الثقافات الأوروبية والغربية، وتستطيع التحاور معها على قدم المساواة والندية. ولذلك كان من السهل تسويق صورة الشاب المتحضر (عكس الهمجي الشرقي) لمجرد أن بشار الأسد سكن في بريطانيا. ابن "بطل القومية العربية" يتخلص من وحشية أبيه الشرقية (أو الجبلية) لمجرد أنه سكن في بريطانيا ورأى الغربيين وسمعهم وطبعاً تعلم منهم. علماً أن بشار الأسد سكن في بريطانيا لستينين فقط، فلو اعتبرنا فرضاً أن بريطانيا هي بلد التحضر وأن قاطنها سيشرب حضارتها فهل يا ترى تكفي سنتان ليتحول من متواحش إلى متحضر؟ وهل يكفي أنه تكلم الإنكليزية لستينين حتى تتغير عقليته وعقلية وسطه؟ وهل من المعقول أن زواجه من بريطانية س يجعله حكماً من "عشيرة البريطانيين"؟ طبعاً لم يكن من المعقول أن يتزوج زعيم "القومية العربية" من بريطانية "قحة"، فوجد لنفسه بنتاً "سورية" أو "من أصول سورية" وكان الأصل لا يترك الإنسان ولو عاش حياته كلها في مجتمع آخر.

السوريون يتعلقون بقشة ومستعدون للاقتناع دون كثير عناء بأن ابن حافظ الأسد المتواحش لو فقد 20% من وحشية أبيه خلال سنتين من الاحتراك مع "المتحضرين" الأوروبيين فسيكون من الممكن العيش تحت حكمه.

طبيب العيون:

ذكر بشار الأسد في عدة مقابلات أنه اختار طب العيون لأنـه علم دقيق ولا دم فيه. لا أحد يعلم كيف وصل بشار الأسد إلى كلية الطب ولا كيف نجح في امتحاناتها، لكن لا أحد يريد أن يعرف أيضاً الكل قبل بأن الطبيب يساوي الذكاء والرقى والحضارة. أضاف إلى ذلك أنه ليس طبيباً جراحًا متعدد على التعامل مع الدم وشق الجلود وكسر العظام، لأن صورة الطبيب الجراح ستُعيد إلى الأذهان صورة الأسد الأب الدموي الذي لا تهتز مشاعره لرؤيا الموت والدماء والأشلاء المقطعة. ويبدو أن بشار الأسد قد أقنع حتى نفسه بهذه الصورة وأراد نشرها. إنـها صورة الشاب الذكي المنطقي الذي دخل كلية الطب وأتم سنواتها الستة بجهوده وخرج للتخصص في بريطانيا لكل السوريين، لا بل اختصار الاختصاص الأبعد عن الدم كي لا تتم مقارنته بأبيه الدموي حتى في اللاوعي. طبعاً كلنا يعرف بشار الأسد المتحذلق المتفلسف الذي يعتقد بقدره العجيبة على التحليل والإقناع والتفكير المنطقي. هذا هو تصوره عن نفسه، وهذه هي الصورة التي أراد أن يُقنع بها العالم.

زعيم الإصلاح:

منذ خطاب القسم بعد أشهر من وفاة الأب وحين تولى ابن بمسرحيـة دستورية مهزـلة وعد بشار الأسد بالإصلاح. رفع صور الأب من الشوارع ورفض وضع صوره (طبعاً لفترة لم تـزد عن سنة قبل أن يـقضـي على ربيع دمشق). هذا الرئيس المصلـح اعـترـفـ بأنـهـ عـهـدـ الأـبـ كـانـ مـلـيـئـاـ بـالأـخـطـاءـ وـأنـ الإـصـلـاحـ حاجـةـ مـاسـةـ لـسـوـرـيـاـ،ـ لكنـ دونـ تـسـرعـ لأنـ الـبـلـدـ فـسـيفـسـاءـ معـقـدـ وـلـمـ تـعـدـ عـلـىـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ فـلاـ بدـ إـذـنـ منـ الحـقـنـ الـبـطـيـءـ لـعـقـارـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ فـيـ هـذـاـ الجـسـدـ "ـالـمـتـخـلـفـ"ـ وـ"ـالـطـائـفـيـ"ـ بـطـبـعـهـ.ـ منذـ بـداـيـةـ وـلـايـتـهـ أحـاطـ بـشارـ الأـسـدـ نـفـسـهـ بـعـدـ لـاـ يـسـتـهـانـ بـهـ مـنـ الـمـسـتـشـارـينـ الـمـخـصـصـينـ وـالـلـامـعـينـ مـنـ أـبـنـاءـ سـوـرـيـاـ الـذـيـ قـضـواـ شـبـابـهـ فـيـ الـمـغـتـربـ يـحـصـلـونـ الـعـلـومـ وـالـخـبـرـاتـ الـمـخـلـفـةـ،ـ وـطـبـعـاـ بـسـبـبـ بـطـشـ أـبـيهـ،ـ وـكـعـادـةـ النـظـامـ السـوـرـيـ

المخابراتي فإنه يحول هواء التنفس إلى إشاعات إيجابية أو سلبية حسب الحاجة. السوريون يقنعون بالإشاعات فكيف إذا بدت وكأنها حقيقة؟ فريق الخبراء لم يلبث أن انفض عنـه. حتى العمل الهائل الذي وضعوه في رسم خطط مستقبلية انتهى في سلة المهمـلات. لكن الناس لم تستـفـقـ منـ الـحـلـ لأنـ سـورـيـاـ اـنـتـعـشـتـ اـقـتـصـادـياـ مـنـدـ هـجـرـةـ العـراـقـيـينـ بدـءـاـ مـنـ عـامـ 2004ـ إـلـيـهاـ وـمـنـ تـدـفـقـ الرـأـسـمـالـ الـخـلـيـجيـ وـالـمـغـتـرـبـ كـمـاـ بـيـناـ سـابـقاـ.

ابن المدينة وخرير اللاييك والسنـيـ بالـزـوـاجـ:

صـحـيـحـ أـنـ حـافـظـ الأـسـدـ كـانـ طـائـفـاـ فـيـ كـلـ فـكـرـةـ مـنـ أـفـكـارـهـ إـلـاـ أـنـهـ لـمـ يـكـنـ فـخـورـاـ بـأـصـلـهـ الـجـبـلـيـ الـعـلـويـ.ـ كـانـ مـاـ يـعـقـدـهـ "ـالـتـفـوقـ السـنـيـ"ـ يـؤـرـقـهـ،ـ لـكـنـ "ـالـرـيفـيـةـ الـعـلـوـيـةـ"ـ لـمـ تـكـنـ الـبـدـيلـ عنـ "ـالـتـفـوقـ السـنـيـ"ـ لـأـنـ حـافـظـ الأـسـدـ كـانـ يـكـرـهـ ثـقـافـتـهـ الـرـيفـيـةـ الـعـلـوـيـةـ.ـ لـقـدـ أـجـبـرـ الـعـلـوـيـنـ عـلـىـ التـخـلـيـ عـنـ كـثـيرـ مـنـ مـقـومـاتـهـ،ـ فـهـوـ لـمـ يـعـتـرـفـ بـهـمـ كـمـذـهـبـ مـسـتـقـلـ فـاسـتـجـدـىـ الـاعـتـرـافـ مـنـ مـوـسـىـ الصـدـرـ الـلـبـانـيـ بـأـنـ الـعـلـوـيـنـ مـجـرـدـ فـرـقـةـ مـنـ الشـيـعـةـ الـاثـنـيـ عـشـرـيـةـ (ـرـغـمـ أـنـ الشـيـعـةـ الـجـعـفـرـيـةـ كـفـرـتـ الـعـلـوـيـنـ مـرـاتـ عـدـيدـةـ).ـ وـهـوـ أـلـفـيـ أـوـقـافـهـ الـمـسـتـقـلـةـ وـمـحـكـمـتـهـ الـشـرـعـيـةـ الـمـسـتـقـلـةـ وـدـمـجـهـمـاـ بـوزـارـةـ الـأـوقـافـ.ـ لـمـ يـكـنـ أـحـدـ طـوـالـ حـيـاةـ الـأـبـ يـجـرـؤـ عـلـىـ ذـكـرـ اـسـمـ الـعـلـوـيـنـ،ـ حـتـىـ الـعـلـوـيـنـ أـنـفـسـهـمـ كـانـوـاـ يـتـحـرـجـونـ مـنـ ذـكـرـ اـسـمـ طـائـفـتـهـ.ـ وـتـابـعـ الـابـنـ عـلـىـ نـفـسـ الـطـرـيقـ فـهـوـ "ـابـنـ الـمـدـيـنـةـ"ـ وـخـرـيـرـ "ـمـدـرـسـةـ الـلـايـيـكـ"ـ الـمـتـفـرـنـسـةـ،ـ وـكـلـ أـصـدـقـائـهـ مـنـ أـبـنـاءـ الـعـائـلـاتـ الشـامـيـةـ السـنـيـةـ الـمـعـرـوـفـةـ،ـ وـحـتـىـ زـوـجـتـهـ اـنـتـقـاـهـاـ مـنـ عـائـلـةـ سـنـيـةـ حـمـصـيـةـ مـاـ أـغـضـبـ كـثـيرـاـ مـنـ الـعـلـوـيـنـ.ـ لـكـنـ لـأـسـمـاءـ الـأـسـدـ مـاـ يـشـفـعـ "ـسـنـيـتـهـاـ"ـ؛ـ فـهـيـ "ـبـرـيـطـانـيـةـ"ـ أـيـ أـنـ "ـحـدـيـةـ سـنـيـتـهـاـ مـكـسـوـرـةـ"ـ بـسـنـيـنـ مـنـ الـعـيـشـ فـيـ بـلـدـ "ـالـحـضـارـةـ وـالـتـسـامـحـ"ـ.

إـلـهـ الـتـكـنـوـلـوـجـيـاـ وـرـبـ الـإـنـتـرـنـتـ:

رـبـ الـأـسـدـ الـأـبـ اـبـنـهـ مـنـدـ بـدـاـيـةـ تـحـضـيـرـهـ لـلـورـاثـةـ بـالـإـصـلـاحـ وـالـتـجـديـدـ (ـأـيـ بـوـعـودـ الـإـصـلـاحـ وـالـتـجـديـدـ،ـ عـلـىـ طـرـيـقـ الشـائـعـاتـ).ـ شـائـعـاتـ الـأـمـلـ تـعـطـيـ الـسـوـرـيـنـ مـاـ يـصـبـرـهـمـ لـسـنـوـاتـ.ـ وـلـيـسـ أـفـضـلـ مـنـ الـتـكـنـوـلـوـجـيـاـ صـورـةـ لـلـأـمـيـرـ الشـابـ الـمـصـلـحـ.ـ اـرـتـبـطـ اـسـمـ بـشـارـ الـأـسـدـ بـالـجـمـعـيـةـ الـمـعـلـوـمـاتـيـةـ السـوـرـيـةـ،ـ بـوـاـيـةـ الـتـكـنـوـلـوـجـيـاـ فـيـ مـلـكـةـ الـصـمـتـ وـالـانـغـلـاقـ.ـ وـبـاسـمـهاـ وـبـاسـمـ بـشـارـ الـأـسـدـ بـدـأـ تـشـغـيلـ شـبـكـةـ الـإـنـتـرـنـتـ فـيـ سـوـرـيـاـ حـوـالـيـ عـامـ 1998ـ،ـ طـبـعاـ بـعـدـ حـصـرـهـ بـالـدـوـلـةـ وـشـرـاءـ بـرـامـجـ الـتـجـسـسـ الـمـنـاسـبـةـ.

رـجـلـ الـأـسـرـةـ:

قال بـشـارـ الـأـسـدـ فـيـ إـحـدـيـ الـمـقـابـلـاتـ الـتـيـ أـجـرـاهـاـ وـهـوـ يـقـودـ سـيـارـتـهـ بـنـفـسـهـ فـيـ شـوـارـعـ دـمـشـقـ بـأـنـهـ يـخـرـجـ مـعـ الـزـوـجـةـ الـأـوـلـادـ للـعـشـاءـ خـارـجـ الـبـيـتـ بـعـدـ اـسـتـشـارـةـ الـأـوـلـادـ،ـ فـالـقـرـارـاتـ فـيـ بـيـتـهـ دـيمـقـراـطـيـةـ تـتـخـذـ بـالـاستـفـتـاءـ وـالـتـصـوـيـتـ.ـ طـبـعاـ الرـئـيـسـ لـاـ يـخـتـافـ عـنـ أـيـ مـوـاطـنـ سـوـرـيـ فـهـوـ يـقـودـ سـيـارـتـهـ بـنـفـسـهـ وـزـوـجـتـهـ إـلـىـ جـانـبـهـ وـلـاـ تـصـاحـبـهـ سـيـارـاتـ الـحرـاسـ،ـ وـيـخـرـجـ للـعـشـاءـ مـعـ مـنـ أـرـادـ وـبـطـلـ بـمـنـ أـسـرـتـهـ أـيـضاـ؛ـ لـأـنـهـ يـمـلـكـ الـوقـتـ الـكـافـيـ لـيـكـرـسـهـ لـهـمـ.ـ وـنـرـىـ طـبـعاـ صـورـتـهـ وـهـوـ يـقـودـ الـدـرـاجـةـ الـهـوـائـيـةـ مـعـ الـأـسـرـةـ،ـ وـصـورـتـهـ وـهـوـ يـلـعـبـ مـعـ أـطـفـالـهـ،ـ إـنـهـ مـجـرـدـ إـنـسـانـ عـادـيـ.ـ الـافـتـراضـ الـذـيـ يـقـلـهـ الـجـمـيعـ هـنـاـ فـيـ هـذـهـ الـمـقـوـلـةـ هـيـ أـنـ التـورـيـثـ الـذـيـ رـسـمـ لـهـ الـأـبـ مـصـيـرـ لـاـ يـمـكـنـ التـرـاجـعـ عـنـهـ وـقـرـارـ إـلـهـيـ لـاـ تـجـوزـ الـمـجـادـلـةـ فـيـهـ.

الـسـيـدـةـ الـأـوـلـىـ:

رـغـمـ إـشـاعـاتـ حـولـ النـزـاعـاتـ الـأـسـرـيـةـ بـيـنـ "ـالـحـمـاـيـةـ الـعـلـوـيـةـ الـمـسيـطـرـةـ"ـ وـ"ـالـكـنـةـ السـنـيـةـ الـمـتـطـوـرـةـ"ـ؛ـ إـنـ أـسـمـاءـ الـأـسـدـ أـخـذـتـ لـنـفـسـهـ مـسـاحـةـ وـاسـعـةـ تـحـتـ الـأـضـواـءـ.ـ إـنـاـ الـحـسـنـاءـ الـتـيـ تـحـجـبـ الـوـحـشـ وـتـجـعـلـ صـورـتـهـ جـمـيـلـةـ وـذـكـرـهـ جـمـيـلـاـ.ـ إـنـ جـزـءـاـ هـاماـ مـنـ أـسـطـوـرـ الـأـسـدـ الشـابـ الـمـصـلـحـ تـتـمـحـورـ حـولـ زـوـاجـهـ مـنـ هـذـهـ الـحـسـنـاءـ الـبـرـيـطـانـيـةـ لـكـنـ السـوـرـيـةـ وـالـسـنـيـةـ لـكـنـ الـبـرـيـطـانـيـةـ.ـ أـسـمـاءـ الـأـسـدـ تـرـعـيـ الـأـيـتـامـ وـيـتـرـاكـضـونـ حـولـهـاـ لـعـنـاقـهـاـ فـهـمـ مـعـتـادـونـ عـلـىـ زـيـارـتـهـ.ـ وـأـسـمـاءـ الـأـسـدـ "ـوـرـدةـ فـيـ صـحـراءـ"ـ سـوـرـيـاـ الـقـاحـلـةـ "ـالـمـشـرـقـيـةـ الـعـرـبـيـةـ"ـ وـ"ـالـأـسـدـيـةـ"ـ.ـ إـنـاـ الـعـطـرـ الـذـيـ يـخـفـيـ رـائـحةـ الـعـفـونـةـ.ـ أـصـبـحـتـ أـسـمـاءـ الـأـسـدـ أـمـ السـوـرـيـنـ تـنـادـيـهـاـ النـسـاءـ لـتـقـذـنـهـمـ حـتـىـ مـنـ بـطـشـ زـوـجـهـاـ.ـ إـنـاـ أـمـ الـأـيـتـامـ الـرـحـيمـةـ.ـ وـحـتـىـ بـعـدـ تـحـطـمـتـ أـسـطـوـرـةـ الـأـسـدـ الـمـصـلـحـ بـقـيـةـ صـورـةـ الـسـيـدـةـ الـأـوـلـىـ الـرـحـيمـةـ الـوـاـقـعـةـ تـحـتـ سـيـطـرـةـ عـائـلـةـ الـأـسـدـ الـمـتوـحـشـةـ باـقـيـةـ لـأشـهـرـ عـدـيدـةـ.

